عبر الصحراء الى موقعك الاول . ثم عد يا محمد يا ابن ابراهيم الى قلب الصحراء . انضم الى قوة مدرعة اخرى بأجهزة دبابتك المسحورة. لكن الطائرات تنقض على الموقع كله بقنابل النابالم ، تتقوس المدافع كأعواد تحترق . يصبح الموقع كله جحيما . تجري لتوقظ سائق دبابتك . تجده نائما من تعب الغدو والرواح ، بلا نوم ، آمنا من طول الانتظار . لا يسمع الدوي ولا القصف ولا الصيحات . تضربه بلكمة ، وتجره ليبتعد . تعدوان معا ، وتنبطحان ، وتزحفان ، ثم تعدوان في سفح التل . وتنقض الطائرات غادية رائحة برشاشاتها . لكنك تنجو ، وينجو معك السائق ، وتربان هذا الشاب الذي ظل جالسا في دبابته ، كتمثال مجسد معذب للكارثة . وقد جف كالحطبة ، وتضاءل حجمه طولا وعرضا . عصرت الحرارة العالية ماءه . وتعودان وسط روائح البارود واحتراق الحديد والشحوم والوقود والاجساد » .

نجا محمد من مفاصة النفس الهادرة في صمت ، وزعق ثانية :

« لا . لن اقول لكم شيئا انتم تعرفونه . لن احدثكم عن الصدى ، واترك الصوت » .

وتوقف عاجزا عن التعبير . ماذا يريد ان يقول حقا ؟.. هتف بالكلمات التي واتته :

« اسمعوني صوتكم انتم يا أهل بلادي . صوت القوة التي واجهت الهكسوس ، وصوت تيمورلنك ، وشقت شمل جيوش نابليون المنتصرة دائما . اسمعوني معه صوت الغد ، والفجر الذي يغسل بآماله ونداه كل الجراح . جراحكم ، وجراحي .. »

وتوقف . ولم يقل شيئا آخر . انزل عصاه بجانبه ، لكن شعر ان الارض سمعته ، والمياه المتدفقة ، والاشجار والقرى البعيدة المترامية ، وارواح النيام التي لا تفغو حتى بالموت . تزحمه المشاعر ولا تسعفه الكلمات . تفرغرت عيناه بدموع عواطف متناقضة ، تصطخب في صدره. قفز من فوق الجدار ، وراح يعدو على الشاطيء الغربي .

انتبه لنفسه وهو يعدو . ينحني ويتقدم مسرعا ، وشعبة السنط بين يديه كالبندقية . كأنه يندفع ليطهر ارضا ، ويكسح عدوا من دياره . توقف . قفز ممسكا بغصن شجرة سنط . انفرست الاشواك في كفه . والتصق سائل صمغي بيده . لكن ، للحظة ، لم يعبأ . اخذ يتأرجح بيد واحدة كالذبيحة . لا . لم يذبح بعد . ولن يقدر احد على ذبحه . وخلفه كل هؤلاء الناس ، وتلك القرى ترك الغصن ، وهوى . اخذ يرقص ، وصنع يسراه في خصره كالقوس . ادار يمناه بشعبة السنط على جانبه ، وفوق رأسه ، وامام عينيه .. كالمروحة . تنتقل قدماه به مع ايقاع العصا . تغير النبض والايقاع في قلبه ، في اذنيه ، وفي ذرات ساعديه وصدره وقطع رقعة التحطيب ، واخذ يطعن بشعبة السنط عدوا غير منظور ، في قلب الليل . يقفز مع كل ضربة ، بقدمه اليسرى ، يعلو الايقاع ويعلو ، حتى يصبح كالنحل ، كالكرة ، كالسيف ، كالبرق والرعد ويرقص رقصة محارب قديم في غابة تمتلىء بالوحوش الكاسرة ، على دقات الطبول ، وانوار المشاعل ، يدور حول نفسه ، والعصا مشرعة ، تقطع الفراغ من حوله . تمزقه ، تملؤه ، وتدور الدنيا ، ويتوقف فجأة ، ويزعق بكل ما يملك من اوتار ، بكل ما في صدره من طاقة :

« روحوا لي يا هوه » .

ويسقط . وتحمل المياه والمساحات نداءه ، بعيدا ، بعيدا . لا يردد الصدى نداءه ، لكنه يسمع ، اصواتا تنبعث في داخله ، من قلب الليل ، من حول السواقي ، ومن بين المزارع . تزعق مجيبة من كل اتجاه :

« جاي يا ولد جاي »

ويبتسم ، ويغفو ، ويحلم : تحت ظل شجرة مدفع . هو في خندق على الجبهة ، صامت ، يبتسم ، يضرب ، ويضرب ، بلا توقف ، وتتجمع على جبينه ، مع كل حبة عرق ، قطرة ندى .

سليمان فياض

مزاجير الصمت

الحضور

تتساقط أقنعتي المشويّة
تتناثر .. ساعة تحضرني الذكرى ..
يتقلص في عينيّ البعد الثالث
يضرب أجفاني بعجين .. لم يخبز ..
تتمدّد أقبية اللحظات الخلفيّة

التجديف

اعطني تاجك ..
خذ تاجي .. قهرا ودماء ..
اين منه الشوك ؟
وانزل عن صليبك ..
فصليبي .. ملء جفن الشمس ..
ذلاً .. وانطفاء
واحتراقا في مرايا الترّهات ..
انزل الساعة .. لا تبطىء ..
والا فلماذا ؟..
انت في الأرض يسوع ..
وانا .. في النكران ؟..

الأمل

الطفل المقبل ورديُ الخدين ..
شفتاه نشيد أخضر
يتفتّح في قلبين ..
الطفل المقبل يضحك في العينين
تحرسه الأجفان النابتة ..
على الشطّين .

اللاذقية ـ فيصل خليل